التأصيل النقدى لحركة الشعر الحديث

بعد مرحلة التأسيس الطويلة لحركة الشعر الحديث والتى تمثلت فى الأعمال الشعرية لرواد الحركة الأوائل قامت الأجيال اللاحقة بتطوير العناصر الفنية فى التجربة الشعرية وانبثقت الاتجاهات الفنية فى إطار هذا الشعر كما ظهرت نماذج لأنماط مستحدثة مثل المسرح الشعرى والقصيدة الدرامية. وقد ظل النقد المستنير حليفا لهذا الشعر منذ بداياته. وكان الانطباع السائد عن النقد المواكب لبدايات الحركة أنه نقد تشجيعى تطور إلى نوع من المشاركة الاحتفالية الصاخبة بحركة التجديد الشعرى. ومع نضج حركة الإبداع الشعرى ذاتها وانتشار مفاهيمها وقبولها الجماهيرى، فإن النقد نفسه بدأ يدخل مرحلة النضج والإلحاح على دراسة العناصر الفنية من زاوية موضوعية.

ولقد كانت دراسة الشاعرة العراقية نازك الملائكة «قضايا الشعر المعاصر» من أسبق الدراسات الموضوعية فى هذا الاتجاه ولكنها جاءت فى وقت مبكر ولم تكن الحركة الشعرية قد أعطت بعد حصادا يسمح باستخلاص القواعد النهائية للشكل الفنى للشعر الحديث.

لقد بدأت الدراسات الموضوعية منذ الستينيات تتابع على نهج التأصيل النقدى لهذا الشعر فصدرت دراسة «قضية الشعر الجديد» للدكتور محمد النويهى والشعر العربى المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية للدكتور عز الدين إسماعيل و«عن بناء القصيدة العربية الحديثة» للدكتور

على عشرى زايد إلى جانب دراسات كثيرة جادة للأساتذة النقاد الدكتور لويس عوض وعبد القادر القط وشكرى عياد ورجاء النقاش وغيرهم. وعلى طريق التأصيل النقدى لحركة الشعر الحديث تأتى هذه الدراسة الجديدة «لغة الشعر قراءة فى الشعر العربى الحديث» للدكتور رجاء عيد وقد تناول المؤلـف فى هـذا الكتاب عددا من أبرز الظواهر الفنيــة والقضايا الأدبية والعناصر الأساسـية فى التجربة الشـعرية الحديثة، وقد افتتح دراســته بالحديــث عن الحداثة والأداء الفنى من خـلال تحديث التعبير المتمثل فى تحول الرؤية الفنية فى الشعر الحديث من الخارج إلى الداخل، «وهو التحـول الذى أضفى صورة مركبة على التعبير عن هذه الرؤية» ، فالمؤلف يقـول: «لقد تحولت – تبعا لظروف متعددة – لغة التعبير الشـعرى من وصـف العالم المـادى الخارجى إلى وصف عالم الشـاعر الداخلى وإلى التعبير عن شـجنه النفسى باسـتخدام لغة تعبيرية مكثفة لتلك المشاعر بدلا من الوصف المادى الذى يعتمد على التشابهات والتماثلات وقد أدى ذلك إلى العزوف عن المعجم الشـعرى التقليدى الذى لم يعد باستطاعته الاسـتجابة لتحدى التشـابكات الحياتية المعاصرة ومن ثـم كان انبثاق تشـكيلات تعبيرية متوالية مع التغييرات الحادة التى عبر عنها أدونيس فى قوله «وقف أسـلافنا عند مظاهر الطبيعة وأشكالها الخارجية أما اليوم فإن قلوب وارثيهم تخفق صوب الأعماق والجذور. كان الابداع لدى أسلافنا يقوم على انتقاء موضوعات فى حدود الوعى الإنسانى العام غير أن موضوع الإبداع اليوم جوهره تجربة تتجاوز القيم المألوفة والأشـكال المكرسـة.. صار الإبداع الشـعرى وسيلة لاكتشـاف نفس الإنسان والعالم صار فعالية

جوهرية تتصل بوضع الإنسـان ومستقبله ومصيره» إن التركيز على الرؤية الشـعرية هو المدخل المناسب لتحليل التعبير عن هذه الرؤية. وقد انتقل المؤلف مـن ملاحظاته المقارنـة على طبيعة الرؤية الفنيـة فى التجربة الشـعرية إلى رأيه فى طبيعة عمل الشاعر الحديث. والحقيقة إن المؤلف فى هذه الملاحظات قد ركز فى مقارناته على بعض النماذج الشـعرية من التراث العربى لا تمثل صميم الرؤية الشـعرية فى العصور الذهبية للشـعر العربى لأن معظم النماذج الشـعرية التى استشـهد بهـا المؤلف لتوضيح خارجيـة الرؤية تنتمى إلى عصور ضعف الإبداع الشـعرى، وهى العصور التى سـادت فيها المحسـنات البلاغية وأصبحت البلاغة تحت سيطرة علـم المنطق، ومن هنا جاء التعبير الشـعرى تطبيقا عاجزا لهذه القواعد التى كان هدفها مدرسيا فى المقام الأول. ذلك أن المقارنة فى الواقع بين الرؤية الفنية فى القصيدة الحديثة والقصيدة التقليدية ليست فى أن واحدة تتميـز بأنهـا داخلية وأخرى خارجية بل تتركز فـى أن الرؤية الحديثة تعطى مسـاهمة أوسع للرؤية الداخلية وتمتلئ هذه الرؤية بمكونات العصر الحديث بمعطيات الإنسانية والوجدانية والشعورية والفكرية التى تختلف اختلافا كبيرا عن الرؤية التقليدية التى تصور عصرا قديما ذلك لأن الشعر الحقيقى – ولا شك أن هناك فى تراثنا الكثير من الشعر الحقيقى – سواء أكان حديثا أم قديما يعتمد على الرؤية الداخلية لأنه تجسيد لوجدان قبل أن يكـون تصويرا فكريا وإذا كانت ملاحظات المؤلف حول الرؤية الفنية قد جنحت إلى بعض المبالغة فإن رأيه فى طبيعة عمل الشاعر كان أقرب إلى الحقيقة حين يقول:

«إن الشاعر الحديث يشـعر بتجربته الشعورية شعورا مختلفا، ومن هنـا فإن مكونـات عناصر أدائـه التعبيرى تعتمد على نسـق معقد فى استخدام معجم شعرى يتولى مهمة تجسيد الإحساس ودفع المتلقى كى يتوحد معه فى همومه الذاتية التى هى جزء من هموم الإنسان فى معاناته الوجودية فى مختلف أشكالها وتعدد مظاهرها وتنوع صورها». وقد لمس المؤلف وهو بصدد الحديث عن الشـكل والطريقة الحديثة فى استخدام التضمين والحوار كنوع من الاستفادة من التراث ومن فنون العصر مثل فن المسـرح. أما البناء الإيقاعى للشعر الحديث فقد حظى هو الآخر بعناية المؤلف حيث يقول:

«من الإمكانات التى وفرها اسـتخدام - التفعيلة - أن أصبح الإيقاع جزءا عضويا فى بنية القصيدة التى تتشكل من توترات نفسية فى آنات زمنية تواكبها. ويقوم الإيقاع المتغير على حسـب تلك الآنات باحتضان المناخـات الانفعالية وخلق تلاحم عضوى فى معمار القصيدة وهندسـة بنائها اللغوى. ولقد كان التحول للشـكل الجديد نابعا من تطور طبيعة الشـعر الحديث حيث أصبحت فنا يسـتخدم الكلمات ليخلق تأثيرات موسـيقية ودرامية. ومن هنا يكـون الايقاع هو القرار الأساسـى لوحدة الشكل والمضمون ممتشجا بالتجربة الشعرية جاعلا أداءها عميقا ومتصلا بين الشـاعر والمتلقى فى تناغـم متداخل يؤازر بعضه بعضا. يوحد بين أجزائهـا حتى تصل إلـى ذروتها الدرامية ومن هنا تلعب الكلمات دورا أساسـيا فى تركيـب القصيدة الجديدة وتمنحهـا تراكماتها اللغوية فى نسـقها الفنى بما يمكن أن يسمى بالفكر الشعرى الذى يستبطن الحقيقة

الداخلية» وقد استطاع المؤلف فى هذه الفقرة أن يضع وعيه على عنصر مركزى فى تحول الإيقاع من الشكل البسيط الغنائى إلى الشكل المعقد الدرامى. ذلك أن الدرامية فى الشعر الحديث قد أفرزت هذا الأداء اللغوى المرن الذى يتعامل مع مستويات متنوعة فى اللغة الواحدة أى تطويع اللغة للأداء الدرامى فى التجربة الشعرية. وجاء هذا التطويع مواكبا لنفس التطويع الإيقاعى فى الشكل. فالقصيدة الحديثة وهى تطمح إلى الاقتراب من عصرها وكذلك تطمح إلى الاستفادة من الآداب والفنون المعاصرة لها قد عمدت إلى تنويع الإيقاع ليس من خلال البحور العروضية بل من خلال إعادة تشكيل التفاعيل داخل البحر الواحد. وقد انطلق المؤلف بعد أن وضع صياغة شبه دقيقة لمفاهيمه عن الحداثة فى التجربة الشعرية إلى اختيار هذه المفاهيم من خلال تطبيقها على عدد هائل من النماذج الشعرية الحديثة، فقد تحدث عن الرمز والترميز والتجاوز الدلالى ولغة الشعر بين الحب والوطن ولغة الحب فى التجربة الصوفية ولغة الشعر والتراث. ومعالجة الشخصيات التراثية بين الاستخدام الفنى والبعد التاريخى كما عقد فصلا للشعر والأسطورة يقول فيه:

«الشعر توأم الأسطورة، فعودة الشعر إليها إنما هو حنين الشعر لتراب طفولته والأسطورة إذ تحتضنها القصيدة فلكى تتحول فى بنيتها إلى طاقة خالقة للأداء الشعرى، حيث يتمثل فيها التراث الشعبى والعقل الجمعى بصورة عضوية تؤكد موقف وقيم الإنسان تجاه الكون وتجاه تساؤلاته المتعددة والإنسان بالمعنى العام امتداد فى الزمن الذاهب

والآتى مضافا إليه بالضرورة حاضره. ومن هنا كان استخدام الأسطورة فى الشعر محاولة للارتفاع بالقصيدة عن تشخيصها الذاتى إلى إنسانيتها الأشمل والأعم وإلى إكسابها بعدا أعمق ومجالا أفسح وتأثيرا أرحب ولنتجاوز فى الوقت نفسه الآتى المحدد الزمنية إلى الجوهر الممتد فى زمنية مطلقة».

إن محاولة التأصيل النقدى لحركة الشعر الحديث والتى تتخذ عدة محاور أكاديمية وفنية وجمالية هى تأكيد لرسوخ هذا الشعر الذى فجر طاقة الإبداع الشعرى لدى ثلاثة أجيال متعاقبة ولكن المفاهيم النقدية والتى يسعى معظم النقاد إلى اختيارها تطبيقيا مازالت هى نفسها فى مرحلة التكوين ومازالت بعيدة عن النتائج الحاسمة. ولكنها محاولات ضرورية لإضاءة الوعى بالشعر ولرصد الحركة الشعرية عبر تطورها المبدع الخلاق.

❑❑❑